بدائع جبران خليل جبران وطرائفهُ

نظر انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

اهدانا ناشر هذا الكتاب يوسف توما البستاني صاحب مكتبة الغرب بمصر نسخةً منهُ مطبوعةً طبعاً حسناً في مطبعة يوسف كوى في السنة الحالية في ٢٢٣ صفحةً مع بعض التصاوير من قلم المؤلف . وبنشرهِ دلَّ يوسف افندي قلّة اكتراثه لكرامة ملّتهِ المارونيّة وشرف مبادئ دينهِ وآداب وطنهِ سامحهُ الله

من هو جبران خليل جبران

رجلٌ بلغ الكهولة رأى النور سنة ١٨٨٣ في بشرّي من اعمال لبنان وبعد ان تخرَّج في مدرسة طائفتهِ البيروتيَّة تقلَّب مع الدهر وتنقَّل الى بلاد شتى كفرنسة واميركة واستوطن نيويورك فسلب عقلهُ تمدُّنُ العالم الجديد الذي اعلن ٦٥ في المئة من اهلهِ (١ تجرُّدهم عن كلّ دين واعتبر كثيرون منهم الدينَ قيداً لا بُدَّ من كسر اغلالهِ وقمع نيرهِ ليستسلموا الى اهوائهم الباطلة وعلى الاقلّ الى اعمالهم المادّية واشغالهم الميولية ذاهلين عن قول الربّ انَّ الانسان لا يعيش من الخبز وحدهُ

ومعلوم انَّ جبران خليل جبران مصوّر بارع استعان بمخيّلتهِ الشرقيَّة لرسم عدَّة تصاوير من مشاهير الاسلام نالت جوائز في معارض باريس واميركة كابن سينا وابن خلدون والغزّالي والمعرّي ومجنون ليلى والمتنبي وابن الفارض وغير ذلك من رسوم كان الاجدر بهِ ان ينفيها من كتابهِ

والكتاب مصدَّر برسمهِ الكريم فمن تمعَّن بصورتهِ هذه ولعلَّها ايضاً من يدهِ لا يتمالك من ان يحكم عنها انَّها سمة رجل يسخر بناظريهِ ويهزأ بدهرهِ وهو واضع يدهُ اليسنى في جيبهِ ويشدّ بشمالهِ الى عصاهُ كأنَّهُ بابتسام وجههِ ينطق بآية الكتاب

---

١ هذا ما ورد في احصاء الولايات المتَّحدة الاخير وكفى بهِ دليلاً على رقي اميركة المزعوم

(اشعيا ٢٢ : ١٣) : « فلتتمتَّع بالحياة ونأكل ونشرب فانّنا غدًا نموت »

وقد أثّر فنُّ التصوير في عقل جبران فظنَّ انه في الكتابة ايضاً يكفيهِ الرجوع الى مخيّلتهِ فيها خطر لها من درّة او بعرة يجوز لهُ ان ينوه بهِ صدقٌ او كذبٌ

جبران خليل جبران وزمرته

ثلاثة رجال سلكوا هذه الطريقة المبهرجة خصوصاً في عهدنا وكلُّهم نصارى: مارونيّان امين (محمّد ا) الريحاني وجبران خليل جبران ورومي اورتذكى فرح انطون المتوفّى في العام الماضي. فان اعتبرت انشاءهم لأوّل وهلة راعك ما تجد فيهِ من التشابيه وضروب البديع الموهة والتعابير المستغربة التي تشنّف المسامع بترويقها لكنك ان دقّقت فيها النظر رأيتها في الغالب لفظاً فارغاً او بالحري لفظاً وثرثرة. وقد بيّنّا ذلك في انتقاد الريحانيّات سابقاً (الطلب المشرق ١٣ [١٩١٠] : ٣٨٩و٧٠٣) حيث اثبتنا لهُ عدّة اقوالٍ تشهد على قلّة ذوقهِ وسوء طريقتهِ الكتابيّة وتعسّفهُ الكثير في الانشاء وتصنّعهُ زاعماً انهُ يكتب الشعر المنثور وهو لا يحسن النثر البسيط

ومثل الريحانيّات «الفرحيّات» اي تآليف فرح انطون الذي حاول ايضاً التمويه على قرّائهِ ببهرجة الكلام لكنَّهُ ابى ان يجري على مثال «فيلسوف الفريكة» في مقالاتهِ الملتبسة ومدّعياتهِ الفلسفيّة فدسَّ غالباً مبادئهُ الباطلة في ما ألّفهُ وعرّبهُ من الروايات

أمّا جبران خليل جبران فانّهُ تعقّب الريحاني في انشائهِ وافكارهِ وربّما حرّف وهذى مثلهُ فاسمع بعض ما ورد من هذيانهِ في الكتاب الذي نحن بصددهِ. قال يصف الكمال (ص ٦٩) :

« تأمّلني يا اخي اي متى يسير الانسان كاملاً. فاسمع جوابي. يسير الانسان نحو الكمال عند ما يشعر بانهُ هو الفضاء ولا حدَّ لهُ، وهو هو البحر بدون شواطئ، وانهُ النار المتأججة دائمًا، والنور الساطع ابدًا، والارياح اذا هبَّت او اذا سكنت، والسُّحب اذا ابرقت وارعدت وامطرت، والجداول اذا ترنّمت، والاشجار اذا ازهرت في الربيع او تجرّدت في الخريف، والجبال اذا تعالت، والاودية اذا انخفضت، والحقول اذا خصبت واجدبت »

أفهمتَ ايها القارئ كيف يسير الانسان نحو الكمال؟ فاسمع الآن كيف يبلغ اوج الكمال قال :

« اذا شعر الانسان بكل هذه الامور بلغ منتصف طريق الكمال . امَّا اذا شاء بلوغ محجَّة الكمال فعليهِ ان شعر بكيانهِ ' ان يشعر بانهُ الطفل المتكل على امّهِ ' والشيخ المسئول عن عيالهِ ' والشاب الضائع بين امانيهِ وغرامهِ ' والكهل الذي يُصارع ماضيهُ ومستقبلهُ ' والعابد في صومعتهِ ' والمجرم في سجنهِ ' والعالم بين كتبهِ واوراقهِ ' والجاهل بين ظلمة ليلهِ وظلمة نهارهِ ' والراهبة بين ازهار ايماضا واشواك وحشتها ' والمومس (يا لله !) بين انياب ضغفها ومخالب حاجتها ' والفقير بين مرارتهِ وامتثالهِ ' والنبي بين حطامهِ واضطرابهِ ' والشاعر بين ضباب امسانهِ وشعاع اسحارهِ — اذا استطاع الانسان ان يختبر ويعلم جميع هذه الامور يصل الى الكمال ويصير ظلاً من اظلال الله »

بالله عليك ايها القارئ قل لي ماذا ادركت من كلّ هذه الالفاظ المزوَّقة أهذا كلام يقوهُ بهِ رجل عاقل ؟ اليس هو بالحري كلام رجلٍ هذَّاءة يتكلّم بلا معقول؟

وكم في هذا الكتاب من اشكال هذه « البدائع واللطائف » التي يمدُّها كاتبها آياتٍ من البلاغة والافكار السامية فاذا سبرتها بمبار الانتقاد اخذك العجب من سخافة كاتبها . اقرأ مثلاً فصلهُ المعنون «الليل والمجنون» (ص٤٦) توقن بصدق قولنا :

المجنون — انا مثلك ايها الليل قائم ' عارٍ سائر على الطريق الملتهبة المستدَّة فوق احلام ضاري ' وحيثما تمرُّ رجليَّ الارض هناك تنبثق شجرة سنديان (كذا)

الليل — كلّا ' لست مثلي ' ايها المجنون ' لأنك لا تزال تلتفت الى الوراء لترى كبر آثار قدميك على الرمال !

الى آخر ما هناك من المقابلات الغريبة النير المأنوسة المضحكة بين الليل والمجنون حتى ينتهي بهذا الختام الملتبس :

المجنون — نحن نوأمان ايها الليل ' فانت تبيّن اعماق اللانهاية وانا ابيّن اعماق نفسي !

ولعلَّ صاحبنا ادرى بنفسهِ اذ يصف الشاعر فاسمع شيئاً من كلامهِ (ص ٣٥) :

(الشاعر) انا غريب في هذا العالم . . . انا غريب عن اهلي وخلاّني فاذا ما لقيتُ واحداً منهم اقول في ذاتي «من هذا وكيف عرفتهُ . . .» انا غريب عن نفسي فاذا ما سمعتُ لساني تكلّماً تستغربُ اذني صوتي . وقد ارى ذاتي الخفيَّة ضاحكة باكية مستبسلة خائفة . . . انا غريب عن جسدي ' وكلّما وقفتُ امام المرآة ارى في وجهي ما لا تشعر بهِ نفسي ' واجد في عينيَّ ما لا تكنهُ اعماقي ' اسير في شوارع المدينة فيتبعني الشبان صارخين « هوذا الاعمى فلنطرحهُ عكّازاً يتوكّأ عليهِ » فاهرب منهم مسرعاً . ثمَّ ألتقي بسرب من الصبايا فيتشبَّثن باذيالي قائلات « هو الطرش كالصخر فلنسلخ اذنيهِ بالمنام النزل» فاتركهنَّ راكضاً . ثمَّ التقي بجماعة من الكهول فيقفون حولي قائلين «هو اخرس كالقبر فلنقلع لسانهِ» فاغلدوهم خائفاً . ثمَّ التقي

برهط من الشيوخ فيؤمون نحوي باصابع مرتعشة قائلين « هو مجنون اضاع صوابهُ في مسارح الجنّ والنيلان الخ »

فمن يا ترى تصوَّر الشاعر كما تخيَّلهُ جبران خليل جبران : رجلٌ يغفل عن ذاتهِ كما يغفل عن كلّ ما حولهُ . أهذا شاعر ام مشعور ؟

وهناك كثير من هذه البضاعة . فكم من الشذرات الباردة والمقالات الصبيانيَّة الفارغة والتسميمات الملتبسة كفصولهِ البحر الاعظم (ص ١٠٧) والنملات الثلاث والكلب الحكيم (ص ١٠٩) الخ

وجبران خليل جبران كمن خلع ربقة الآداب مُغرَم بالنساء . فاذا تصوّرهنَّ لا يتصورهنَّ الَّا عاريات (ص ٢٥ الخ) وان ذكرهن لا يذكرهن الَّا كالمتيَّم بعشقهنَّ واذا وصفهنَّ لا يصفهنَّ الَّا للخلاعة . وان ذكر الحب رام الاحتراق بلهيبهِ قال في المقالة المعنونة «على باب الهيكل» (ص ٧٨) :

سمعت صوتاً من داخل الهيكل يقول « الحياة نصفين (كذا) نصف متجلّد ونصف ملتهب فالحبّ هو النطق الملتهب» فدخلتُ الهيكل اذ ذاك وسجدت راكعاً مبتهلاً مصلياً هاتفاً « اجعلني يا ربّ طعاماً للهيب اجعلني أيُّها الاله مأكلاً للنار المقدسة آمين »

فبينما يطلب اصحاب التمييز منهُ تعالى ان ينجوا من شهوات نفسهم الأمّارة يقتصر جبران خليل جبران في صلاتهِ على ان يطلب من الله ان يكون « طعاماً للهيب العشق ومأكلاً لنارهِ المقدَّسة !» ولم يستحي ان يكتب فصلاً عنونهُ بجبران العاشق (ص ٣٢) وصف فيهِ عبوديَّتهُ المذلَّة وكذا فعل في فصول اخرى كتبذتهِ «قبل الانتحار»

وكما باع جبران خليل جبران قلبهُ لهوى النساء تراهُ ايضاً ينادي بالثورة والتمرُّد ولا يرى في كلّ طبقات الهيئة الاجتماعيَّة الَّا عبيداً حتى الجنود والملوك والكهنة وقد ذكر في مقالتهِ العبوديَّة (ص ٥٣) صنوفاً من العبوديَّة كالعبوديَّة الخرساء والصمّاء والعرجاء والشمطاء والرقطاء الخ ما هو محض ثرثرة رجل مهذار متشدّق يتطلَّش الى الحريَّة ولا يعلم من امرها شيئاً . ومما قالهُ في رؤياهُ او بالحري في اضغاث احلامهِ (ص ٧٢) :

« الحياة بغير تمرُّد كالفصول بغير ربيع في الصحراء القاحلة الجرداء . . . الحياة والتمرُّد

والحقّ ثلاثة اقانيم في ذات واحدة لا تقبل الانفصال ولا التغيّر »

فترى انّ الخلاعة وروح الثورة على السلطة لا تنفصلان في قلب جبران خليل جبران كما لم ينفصلا في قلب الريحانيّ وفرح انطون

تحامل جبران خليل جبران على الدين

وما قولنا الآن بكفر هؤلاء الرجال وزندقتهم فانهم في هذا الميدان ايضاً كخيل الرهان يتسابقون فيه فيرون في الدين واهله مجموع الاثام فينسبون اليه قبائحهم وفظائع قلوبهم فكأني بهم لا يمكنهم ان ينظروا الى رجال الدين الّا تنمّروا غيظاً ولعلّ منظر الكاهن يذكّرهم بسوء سلوكهم وبالثواب والعقاب اللذين ينذرهم بهما ارباب الكنيسة وبالحساب الذي يجب عليهم ان يؤدوه يوماً الى ديّانهم فيقشعرّون

فالريحاني (ذو الرائحة المنتنة) بكلّ كتاباته يسعى في نفث سمومه في الدين وممثليه فلا يرى بينهم الّا ظَلَمةً « يستخرجون من بعض الآيات والعقائد قواعد تمكّنهم من الضغط على الانفس والعقول» فتارةً يلقبهم « بالخرافة السوداء» وحيناً ينعتهم «باعداء الآداب» او «بالشرّ اللازم للبشر» او « بالتاجرين بالحقيقة والمكثرين من الخرهلات» بل لم يخجل ان يسلق بلسانه الاثيم فخر لبنان بطريرك طائفته الجليل ويتهدّد بالرصاص مقامهُ البطريركيّ كما انهُ بقحتهِ ابتخس كرامة سيدة لبنان فضربتهُ بذراعهِ ضربةً لا يزال يشكو منها

وانطون فرح في كتاباته المختلفة يصوّر رجال الدين لا فكر لهم الّا ابتزاز المال من ايدي الناس . يجعل الرهبان « كمثال الكسل والبطالة شبيهين بالبعوض والبقّ والقمّل والبراغيث يعلقون على جسم الهيئة ليمتصّوا دماءها وهم قاعدون بلا عمل بحجّة انهم يخلّصون انفسهم ويصلّون لغيرهم» (الوحش الوحش ص١١) وربّما اثار الخواطر عليهم ليتزعوا من يدهم اديرتهم واموالهم مدّعياً بعدم اهليّتهم لملكها

وكذلك جبران خليل جبران قد نفذ في قلبهِ الميكروب اللادينيّ فيجري على مثال السابقين في بغضهِ الدين ومناهضتهِ لأصحابهِ وجَهْلهِ بمعتقداتهِ . فان قرأت فصلهُ الذي عنونهُ باسمهِ تعالى «الله» (ص ٤٤) لا تدري أيعتقد بوجودهِ او يجعلهُ خليقةً «ينمو معها سوّيةً (كما هو قال) امام وجه الشمس» او يدخل هو في الله «كالبحر

يضمُّ جدولًا جارياً اليهِ » وفقاً لمذهب الحلول والانتشار (Panthéisme) فكلُّ هذا يؤخذ من كلامهِ

ولو اردنا نقل اقواله الكفريَّة لطال بنا المجال فنراها تارةً مدسوسةً في جملة اقوال عموميَّة وتارةً منفردةً فحيناً يدعو الكاهن عابد صنم (ص ٥٢) ويزعم ان «ارباب الكنائس ينحرون الفتيان والعذارى على مذابحها ويدعونها الهًا» وفي كتابهِ الاجنحة المكسَّرة (ص١٠٧) تصوَّر معبدًا جمع فيهِ بين عشتروت إلهة الفينيقيين العاهرة يحوط بها سبع عذارى عاريات والسيد المسيح مصلوباً . وهناك شخص لقبهُ مارونيًّا دعاهُ باسم بولس غالب نسب اليهِ كلَّ المطامع وضروب الحيل والمراء . وفي شذرات بدائعهِ (ص١٤٧) ما ينشز منهُ كلَّ ذوق كقولهِ « المتديِّن لا يتمذهب والمتمذهب لا دين لهُ » وكقولهِ : وكفرهُ صريح « هل كانت محبَّة لم يوداص لولدها اقلَّ من محبَّة مريم ليسوع » . ومثلهُ قولهُ شعرًا يصف الدين وينفي كلَّ تعاليم السيد المسيح والانبياء (ص ٢١٩)

والدينُ في الناس حقلٌ ليس يزرعهُ ... غيرُ الأولى لهم في زرعهِ وطَرُ
من آمل بنعيم الخلد مبتئس ... ومن جهولٍ يخاف النار تستعرُ
فالقوم لولا عقابُ البعث ما عبدوا ... ربًّا ولولا الثواب المرتجى كفروا
كأنَّما الدينُ ضربٌ من متاجرهم ... ان واظبوا ربحوا او اهملوا خسروا

أمَّا جبران خليل جبران فانَّ حبَّ الله قد اضرم قلبهُ فلا يبأ بجحيم ولا بنعيم ولطهارة قلبهِ يترفَّع عن الخوف والرجاء فيدَّعيها لسخاء العقول على انهُ نسي قول ربِّهِ والههِ في انجيلهِ (لوقا ١٢ : ٥) : «انا ابيِّن لكم ممَّن تخافون خافوا ممَّن اذا قتل لهُ قدرة ان يُلقي في جهنَّم نعم اقول لكم من هذا خافوا» لكنَّ جبران خليل جبران ارفع مقاماً من ان يقيد نفسهُ بالانجيل ولعلَّهُ لم يطَّلع عليهِ في حياتهِ وهو النصراني الماروني

ليس هذا كلُّ ما يحسن انتقادهُ في بدائع جبران وانَّما نكتفي بهِ ليتحقَّق القرَّاء اننا لم نتحامل عليهِ جزافاً او لغاية شخصيَّة لكن لواجب الضمير الذي يضطرُّنا الى ان نكشف للعموم دسائس بعض الكتبة لئلَّا ينخدعوا بشقشقة لسانهم وبهرجة كلامهم

على اننا لا ننكر انَّ في الكتاب بعض الفصول الحسنة كالفصل الذي عنوانهُ « لكم لبنانيَّتكم ولي لبنانيَّتي » وان تجاوز فيهِ حدود الانتقاد ولم يأتِ كعادتهِ

من بعض التعريضات. ومن فصولهِ الفكهة فصل « الاستقلال والطرابيش » (ص ٧٠) ذكر فيهِ شرقيًا على مائدة باخرة افرنجيَّة اجبرهُ الآكلون على خلع طربوشهِ فاغتاظ لذلك فتهكَّم منهُ صاحب البدائع حتى قال (ص ٧١) :

«وهذا شأن اكثر الشرقيين الذين يأبون ان يكونوا شرقيين الَّا بتوافه الامور وصغائرها مع انهم يفاخرون بما اقتبسوهُ من الغربيين عنًّا ليس بتافه او صغير . . لو فكَّر ذلك الاديب الذي استصعب خلع طربوشهِ في الباخرة الافرنجيَّة بأن ذلك الطربوش الشريف قد صُنع في معمل افرنجي لهانَ عليهِ خلعهُ في اي مكان وفي أيَّة باخرة افرنجيَّة . لو فكَّر اديبنا بأن جدَّهُ السوري كان يُبحر الى مصر على ظهر مركب سوريّ مرتديًا ثوبًا غزلَتْهُ وحاكَتْهُ وخاطَتْهُ الايديّ السوريَّة كما تردَّى بطلُنا المرّ الَّا باللباس المصنوعة في بلادهِ ولمَّا ركب سوى سفينة سوريَّة ذات ربَّان سوري وبحَّارة سوريين . . اقول لاديبنا واقول لجميع المتطربشين « ألا فاسمعوا طرابيشكم يدكم ثم تخبَّروا في ما تفعلونه بطرابيشكم على ظهر الباخرة او على قنة جبل او في جوف الوادي . . .»

فكنَّا نودّ لو لقينا فصولًا كثيرة كهذا تستحقّ الثناء فحرمنا جبران خليل جبران منها ليتشبَّث بما لا يروق في عين اصحاب الدين والادب

لقد يسوءنا وايمُ الله ان نرى بعض ناشئة بلادنا العزيزة يتلفون هكذا ما منحهم الله من الهبات العقلية فبعد ان رضعوا حليب الدين والتقى في وطنهم لبنان وتخرَّجوا في مدارسهِ على سُنن الادب والصلاح يذهلون عن تعاليم اهلهم واساتذتهم ويندفعون كالسيل الى تقليد التمدُّن المصريّ الباطل ويخلعون العذار كالفرس الجموح فينادون بحرّية الضمير . واوَّل ما يرفعون عتبهم على دين اجدادهم الذي بفضلهِ تهذَّبوا تاركين الجميل فيهزأون بهِ ويصوّبون سهام شتائمهم الى معتقداتهِ الجليلة ويستهجنون طقوسهُ ورتبهُ ويتحاملون على ارباب كالنيران اذا لوَّح المصارع الاسبانيّ امامها بشقَّة حمراء فينسيون اليهم زورًا كلّ الدنايا وان رأوا نقصًا في الواحد منهم عظَّموهُ وعمَّموه ليبغّضوهم جميعًا الى الناس . هذه خطَّة الريحانيّ وفرح انطون وجبران خليل جبران والمتعصّبين آثارهم من الشبَّان واكثرهم ينتمون الى الماسونيَّة ويتأثَّرون روحها القتَّال روح الخلاعة والتزق روح الكفر والالحاد المفضي ولا بُدَّ الى فساد العباد وخراب البلاد